مصطفى البكري الصديقي [1]

الدمشقي المقدسي الحنفي الرمالي

(١٠٩٩ هـ — ١١٦٢ هـ ١٦٨٧ م — ١٧٤٨ م)

للأستاذ أحمـــد سامح الخالدي

هذه شخصية من رجال القرن الثاني عشر الهجري ، نشأت في دمشق ، وترعرعت في بيت المقدس وانتهى بها المطاف إلى مصر ، وقد تركت لنا عدداً من الرحلات في الديار المقدسية ، وسوريا ، والأناضول ومصر والحجاز . ومع أن هذه الرحلات ليست شيقة ، ومع أن أسلوبها يمثل أسلوب القرن الثاني عشر الركيك ، وبالرغم من انصراف صاحبها إلى الوعظ والإرشاد عن طريق التصوف ، شأن حملة العلم من رجال ذلك القرن ، إلا أنها تلقي نوراً على كثير من الحوادث ، وتصف لنا حالة البلاد التي زارها في ذلك العهد المظلم . ونرجو أن نتمكن من تلخيص بعض هذه الرحلات للقراء الكرام . وقد سبق أن نشرنا رحلتين قام بهما صاحب الترجمة من دمشق إلى القدس وبالعكس في كتاب رحلات إلى ديار الشام ، وذلك في سنة ١١٢٢ هـ و ١١٢٦ هـ . وقد كتب ونظم الشيء الكثير . ويقول السيد حسن بن عبد اللطيف الحسيني المقدسي في كتابه [أعيان القدس في القرن الثاني عشر] إن مؤلفاته زادت على المئة . ويروى لنا المرادي في درره أن كتبه ظهرت في أرض الكنانة ، وأن تلامذته ومريديه لما بلغوا مئة ألف أمر بعدم كتابة أسمائهم ، وقال هذا شيء لا يدخل تحت عدد ا .

وهو ابن كمال الدين بن علي بن كمال الدين عبد القادر محيي الدين الدمشقي البكري الأستاذ الكبير والعارف الرباني ترجمه المرادي وأفرد له عشر صفحات [1] ونعته « بأحد أفراد الزمان وصناديد الأجلاء من العلماء الأعلام والأولياء العظام العالم العلامة الأوحد أبرّ العارف قطب الدين صاحب المعارف والمعارف والتآليف والتحريرات والآثار التي اشتهرت شرقاً وغرباً ، وبُعد صيتها في الناس عجماً وعرباً » . كما ترجم له السيد حسن بن عبد اللطيف الحسيني في كتابه « أعيان القدس في القرن الثاني عشر [2]

ولد بدمشق سنة ١٠٩٩ هـ وتوفي والده وكان عمره ستة أشهر ، فنشأ يتيماً في حجر ابن عمه ، واشتغل بطلب العلم على شيوخ الشام وأجاز له محمد بن محمد البديري الدمياطي [3] ولازم الشيخ عبد الغني النابلسي [4] وأخذ الطريقة الخلوتية [5] ثم سكن بعد ذلك إيوان المدرسة الياذرائية [6] وأخذ يدرس فيها فكثر طلابه ومريدوه .

وقام في سنة (١١٢٢ هـ ١٧١٠ م) برحلته الأولى من دمشق إلى القدس ، وهي تشبه كثيراً رحلة أستاذه الشيخ عبد الغني النابلسي التي قام بها (١١٠١ هـ ١٦٨٩ م) وقد وصف فيها لنا الطريق ، وما مرّ عليه من القرى والدساكر ، وحالة الأمن ومرافقته الركب والغفرية ، وخان عيون التجار الذي بناه سنان باشا ، وهو خراب الآن يقع بالقرب من قرية شخبرة ، ثم مدينة جنين لاحتين المحصنة ، ثم تعرض اللصوص للركب ، ثم طواحين وادي نابلس وكانت تسير على المياه وهي خراب الآن ، ثم القدس ، والحرم القدسي ، وباقي المزارات ، واجتمع وهو يدور مقام الإمام علي بن عليل العمري على ساحل البحر شمالي

---

(١) مؤلف الخرة المحسية في الرحلة القدسية ، والخطرة الثانية الانسية للروضة القدسية ، والرحلة الحلبية ، والنخلة النصرية في الرحلة المصرية ، والحلة الخفيقية لا المجازية في الرحلة الحجازية ، والاحسان في الرحلة الى جبل لبنان ، والرحلة الحجازية الثانية ، والقدوم لديار الروم . الخ الخ

(١) ص ١٩٠ ج ٢ سلك الدرر .

(٢) مخطوط في حوزة كاتب المقال .

(٣) جد عائلة البديري ببيت المقدس .

(٤) ولد بدمشق ١٠٥٠ هـ وتوفي ١١٤٣ صاحب الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية ، طبعنا خلاصتها في كتابنا رحلات إلى ديار الشام .

(٥) أسسها عمر الخلوتي من قيصرية في بر الأناضول (آسيا الصغرى) سنة ٨٠٠ هـ كما جاء في الذكر الجلي . كانت في أوائل القرن التاسع معروفة بالقدس وقد فقد ذكرها من المستندات منذ قرنين .

(٦) أسس هذه المدرسة بدمشق العلامة نجم الدين أبو محمد عبد الله أبي الوفاء بن محمد بن عبد الله بن عثمان الباذرائي البغدادي ، ولد سنة ٥٩٤ هـ وتوفي سنة ٦٥٥ هـ . وقد بنيت هذه المدرسة مكان دار الأمير أسامة بن المنقذ صاحب قلعة شيزر .

مدينة يافا بالشيخ الإمام نجم الدين بن خير الدين الرملي (١) وكان نجم الدين مفتي مدينة الرملة حينذاك فدرس عليه الموطأ للامام مالك . وقد جيء للشيخ بزنبق برّي طيب الرائحة فقال إن والدي أبي خير الدين قال فيه :

وزنبقة قد أشبهت كأس فضة ... براس قضيب من زمردة عجب
سداسي شكل كل زاوية له ... على رأسها الأعلى هلال من الذهب

وعاد بعد ذلك إلى دمشق ، ومنها إلى حلب (٢) ثم بغداد وانتقل سائحاً في البلاد الشامية ، ثم دخل القدس ثانية سنة ١١٣٦ . وكتاب رحلته الثانية ، كما ألف كتابه ورد السحر المعروف [بالفتح القدسي والكشف الأنسي] وعمر بالقدس الخلوة التحتانية (٣) وكانت تقام بها الأذكار ، ولها تعيين من خبز وأكل على تكية السلطان (٤) ان أقام بها . وتزوج في القدس ؛ وأرخ بعض رفاقه زواجه بقوله [زفت الزهراء للقمر] .

وقدم من جهة دمشق والى مصر لزيارة القدس وهو الوزير رجب باشا ، فزار صاحب الترجمة وصار له فيه اعتقاد ، واصطحبه معه إلى مصر ، فدخل مصر وأقام بها مدة ، وأخذ عنه العلم والطريقة خلق كثير من أجلهم النجم محمد بن سالم الحفني . ثم زار السيد البدوي ، ومن هناك إلى دمياط وأقام في جامع البحر وأخذ عن علمائها محمد البديري وأجازه أجازة عامة . ثم رجع إلى بلدة بيت المقدس عن طريق البحر وأقام فيها إلى سنة ١١٣٥ هـ . وتوجه إلى طرابلس الشام عن طريق البر ومنها إلى حمص وحماه ، ونزل في بيت يسن القادري الكيلاني شيخ السجادة القادرية وأخذ عنه الطريقة القادرية(١) ومنها إلى حلب وكان واليها الوزير رجب باشا المتقدم ذكره وأخذ عنه جماعة منهم الشيخ أحمد خطيب الخسروية الشهير بالبنى . ثم توجه إلى دار السلطنة العلية قسطنطينية عن طريق البر ونزل في مدرسة سوردلي مدة إقامته فيها ، وكان يتنقل بين المدارس ، ويمكف على التأليف والإرشاد ، وكلما سكن في جهة وشاع خبره يقصده الناس فيرتحل إلى غيرها . وفي سنة ١١٣٦ هـ رجع عن طريق البر إلى حلب ونزل في الخسروية ثم توجه إلى بغداد ونزل في القادرية . وجاءه كتاب من شيخه عبد الغني النابلسي يحثه على العودة إلى الشام لأجل والدته فعزم وتوجه إلى الموصل فحلب فدمشق وحن إلى الأرض المقدسة فرحل متوجهاً إلى القاع العزيز وبلاد صفد سنة ١١٤٠ هـ وفي تلك السنة ولد له ولد هو الشيخ محمد كمال الدين .

وأقام في القدس يرشد ويصنف إلى سنة ١١٤٥ هـ حين عزم على الحج مع رفقائه ومنهم (حسن بن مقلد الجيوشي) [الجيوشي الآن] شيخ ناحية بني صعب [قضاء طولكرم وأصلها طور كرم وهو الأصح] فتوجه إلى المزيريب ومنها إلى المدينة فمكة وعاد مع الركب الشامي إلى القدس .

وفي سنة ١١٤٨ هـ سار للبلاد الرومية [تركيا الآن] فمر على بلاد صفد ودمشق ، ثم دار السلطنة ، وتوجه منها بحراً إلى الإسكندرية فوصلها في ثمانية أيام ، ومنها إلى مصر . وعزم بعد ذلك على الرجوع للشام فدخل القدس ، وكانت له بنت رآها مريضة وقد توفيت بعد ذلك فحزن عليها كثيراً . وفي سنة ١١٤٩ هـ توجه إلى أرض الكنانة وصحبه جمع كثير ، وظهرت كلمته ، ولما جاوزوا المائة ألف لم يعد يحصيهم . وحج وعاد إلى دمشق ، وكان واليها إذ ذاك سليمان باشا العظمي [العظم] فنزل قرب الخانقاه السمساطية وتحول بعد ذلك إلى نابلس فمكث فيها مدة . وفي سنة ١١٥٢ هـ توجه إلى القدس وبقي بها إلى سنة ١١٦٠ هـ ، ثم سار إلى مصر والساحل الشامي ، فوصل مصر ونزل قرب الأزهر . ولما وصل قرية الزوابل تلقاه الأستاذ الحفني مع خلائق كثيرين من علماء مصر ، وأقام يرشدهم ويزدحمون على بابه وقل من يتخلف عن تقبيل يديه . وفي سنة ١١٦١ عزم على الحج . وأخذ الطريقة

(١) هو خير الدين الرملي الطبسي الفاروقي الإمام المحدث صاحب الفتاوى الخيرية (الحنفية) ولد سنة (٩٩٣ هـ) وتوفي سنة ١٠٨١ هـ ، ترجمه المحبي ص ١٣٤ .

(٢) كتب عنها رحلته الحلبية .

(٣) تقع هذه الخلوة في الحرم القدسي على يسار الصاعد إلى درج الصخرة وتعرف بالخلوة البكرية الآن .

(٤) ومن أعظم أثر من آثار العثمانيين في القدس بل في فلسطين ، حاشا سور بيت المقدس . ولا تزال هذه التكية عامرة توزع الحساء (الشوربا) والخبز على فقراء بيت المقدس أسست سنة (٩٥٩ هـ — ١٥٥١ م) أسستها خاصكي سلطان (روكسلينا) زوجة السلطان سليمان القانوني .

(١) أنشأها السيد عبد القادر الجيلاني في بغداد سنة (٥٦١ هـ) وهي أم الطرق في العراق والهند